المحـــاضرة الخامســـــة:

منطلقات الســـيميائية عند دي سوسيـــر

إنّ السّيميولوجيا مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي الذي أرسى دعائمه السوسيري "فرديناند دي سوسير"، منذ القطيعة الإبستمولوجية التي أحدثها مع الدراسات اللغوية السابقة وهو وإن لم تكن دراساته حول السميولوجيا، إلّا أنه أرسى قواعد أساسية تبناها كل السميائيين الذين أتوا بعده.

لقد دعا إلى تبني المنهج الوصفي الذي لا تحتكم قوانينه إلى العوامل التاريخية أو الخارجية الأخرى، بل إنّ اللغة في إطار هذا المنهج يجب أن تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها، إنها منهج مغلق لا يؤمن بما يقع خارجه من عوامل، ولأنه منذ البداية أراد أن يصل إلى دقة علمية كبيرة في بحوثه النظرية فقد كان أكثر تخصيصا لبحثه، الذي هو اللغة دون سواها، وترك لمن أتى بعده مهمة التكفل بالقضايا الدلالية، والإشارات غير اللغوية الأخرى، لكنه لم ينس توضيح مجال بحثه الذي هو "**دراسة اللغة الطبيعية**" ليقول أنها جزء من علم عام هو علم السيميولوجيا.

كان "دي سوسير" يدرك منذ البداية أن العملية التواصلية تتم عبر مجموعة من الإشارات اللغوية وغير اللغوية، فكانت أول خطوة قام بها هي "تحديد علم اللغة بعد النظر إلى شتى العوامل البيولوجية والفيزيقية والسيكولوجية والاجتماعية والتاريخية والجمالية والعلمية، التي تتداخل وتتشابك لتكوّن نسيج النشاط اللغوي لدى البشر".[1] فبعد أن رأى أن "اللغة مؤسسة اجتماعية، ولكنها تتميز عما سواها (...) بعدة سمات"،[2]نستنتج أنه من الضروري إدراج ظواهر من صعيد آخر في هذا السياق ذلك أنّ هذه اللغة ما هي إلا "نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار، وهي في هذا شبيهة بالكتابة، وبألف بائية الصم

([1]) سمير حجازي، المتقن، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، دار الراحب الجامعية، بيروت، لبنان،ص:199

([2]) فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة،ص:37

والبكم، وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك وبالإشارات الحربية وغيرها"،[1] فاللغة إذن ما هي إلا وسيلة من الوسائل التي تحقق الدلالة وتنقل أفكار الإنسان إلى الآخرين، ومن ثم تساعد على التواصل كغيرها من الأنظمة الأخرى، وإن كانت _كما أكّد "دي سوسير"_ أهم هذه الأنظمة جميعها، أمّا أهميتها فترجع إلى كونها المضمون الرئيس للكون، ولأنماط وجوده، فلا يمكن معرفة أي شيء دون الاستعانة بعلامات اللسان، ذلك أن العالم بكل موجوداته يحضر في الذهن على شكل مضمون لساني، ولأنه توجد أنظمة تواصلية أخرى غير اللغة الطبيعية، فلا بد من تصور علم "يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي قسما من علم النفس العام، ونقترح تسميتهSémiologie ، أي علم الدلائل وهي كلمة مشتقة من اليونانية Sémeion، بمعنى دليل ولعلع سيمكننا من أن نعرف مما تتكون الدلائل والقوانين التي تسيرها، ولما كان هذا العلم غير موجود بعد، فإنه لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون، ولكن يحق له أن يوجد ومكانه محدد سلفا".[2]

نفهم من القول أنّ "دي سوسير" قد جعل السيميولوجيا فرعا من علم النفس الإجتماعي، ومن ثم من علم النفس العام، ولعل السبب الذي جعله يضع السيميولوجيا هذا الموضع من علم النفس وعلم الإجتماع هو ولعه بالنتائج التي توصلت إليها أبحاث هذين العلمين، على يد معاصريه "فرويد" و"دوركايم"، ومن خلال تسميته لهذا العلم بالسميولوجيا اشتقاقا من Sémeion اليونانية ندرك وعيه بالدراسات اللغوية القديمة العائدة إلى الجذور اليونانية.

وقد أكّد "دي سوسير" أنّ النتائج التي سيتوصل إليها علم الدلائل سوف تطبق على اللسانيات، ذلك أن هذه الأخيرة ما هي إلا جزء، أو مفصل من علم عام هو علم

([1]) فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة،ص:37

([2]) ينظر: المرجع نفسه، ص37.

العلامات، فاللسانيات إذن تتقيد بدقة "بمجال محدد في مجموعة القواعد الأنثربولوجية". [1]أمّا أهميتها فتعود إلى كونها ألحقت بعلم الدلائل ليس إلا ــكما يقول "دي سوسير"- الذي يعترف منذ البداية بأهمّية السيميولوجيا، وإن لم تتحدد معالمها بدقة بعد، كيف لا وهي الكل، أمّا اللغة فلا تمثل إلا جزءا صغيرا منها، ولكن هناك الكثير من السيميولوجيين الذين أتوا بعده، وقلبوا مقولته هذه وأولهم "رولان بارث"، الذي رغم أنه احتفظ بمفاهيم ومصطلحات كثيرة لـ"دي سوسير" خاصة مصطلحي الدال والمدلول الذين فضلهما على مصطلحي التعبير والمحتوى لــ"هيلمسليف" كما احتفظ بمفهوم ثنائية اللغة والكلام برمته، والذي ينظر "دي سوسير" من خلاله إلى اللغة على أنها منظومة من العلامات تعبر عن فكرة ما، أما الكلام فهو عمل فردي للإرادة والعقل، إلّا أنّه قلب مقولة اللسانيات جزء من السيميولوجيا، وقال بأنّ "اللغة ليست إلّا جزءا من علم العلامات، والنظر إلى علم العلامة بوصفه فرعا من علم اللغة العام، وبالضبط ذلك القسم الذي يتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة".[2]

فاللسانيات أهمّ بكثير من السيميولوجيا لأنها الأساس في تكونها وتشكيل قواعدها، وهو نفس الرأي الذي ذهبت إليه "جوليا كريستيفا" حين تقول:" تستطيع اللسانيات أن تصبح النموذج العام لكل سيميولجيا، بالرغم من كون اللسان ليس سوى نسق خاص من ضمن الأنساق السيميولوجية"، [3]و كيف لا تكون اللسانيات هي أساس السيميولوجيا وهذه الأخيرة قد تبنت في منطلقاتها كل المبادئ الألسنية، ولأن مهمة السميولوجيا السوسيرية هي الكشف عن كينونة الدلائل كيفما شاءت بأي نظام كانت، فإنّ التعرض لمفهوم الدليل عند

([1]) أحمد مومن،اللسانيات، النشأة والتطور،ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص132

([2]) عبد الله ابراهيم وآخرون،معرفة الآخر: مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة(النبوية-السيميائية-التفكيك)،ص 77

([3]) جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، (ط2)،دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب،1997م، ص 15

"دي سوسير" مهم في مقامنا هذا، فقد ربطه بمفهوم النظام، هذا الأخير الذي هو "الرابط الحقيقي بين العناصر الصوتية والعناصر النفسية في صلب كل دليل من الدلائل".[1]

ويقصد "دي سوسير" بالعناصر الصوتية الدوال، فقد حصر الدال في الصورة الصوتية فقط، أما العناصر النفسية فهي المدلولات وهو تأكيد آخر على الجانب النفسي في دراسات "دي سوسير"، والنظام السوسيري "يتضمن مفهوم الكل والعلاقة، حيث لا يمكن فهم وظيفة الأجزاء إلا في علاقتها الإختلافية مع الكل، فالأجزاء داخل النظام ليس لها معنى في حد ذاتها عندما ينظر إليها معزولة، وهو ما عبّر عنه "دي سوسير" بمفهوم القيمة Valeur.[2]

وقوله "علاقتها الإختلافية" مبني على رؤيته للغة، يقول: "أما في اللغة فإنّك لا تجد إلا اختلافات دون وجود لعناصر إيجابية، فسواء اعتبرت المدلول أو الدال، فإنك لن تجد في اللغة أفكارا ولا أصواتا وجودها سابق لوجود النظام اللغوي، إنّما تجد فيها اختلافات تصورية، وأخرى صوتية نابعة من ذلك النظام".[3]

لا قيمة إذن للأفكار مجردة عن الدوال، ولا قيمة للدوال دون أفكار، ووجودهما مستقلان عن بعضهما البعض مستحيل، ثم إن الدلالة لا تتكون إلا داخل النظام، أو الوحدات اللغوية، ولا تعرف إلا في علاقاتها التعارضية، وهذا ما يفترضه مفهوم القيمة كما وضح "أنور المرتجـــي"، والتصور السوسيري لمفهوم القيمة كما يقول "رولان بارث":"يتكئ على خلفية ديمقراطية تنتظم العلاقة بين الدلائل، أي أنّ "دي سوسير" يتعامل معها كمواطنين في مجتمع (داخل نظام) يقوم على المساواة".[4]

وهو تشبيه رائع من "بارث" يوضح بشكل جيد مفهوم القيمة عند "دي سوسير"، حتى أنه ترك لنا مجالا للشرح أكثر، ويمكن أن أعطي مثالا توضيحيا أورده "دي سوسير"، وهو تشبيهه

([1]) فرديناد دي سوسير، محاضرات في الألسنة العامة ص 183.

([2]) أنور المرتجي، سيميائيات النص الأدبي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ص10

([3]) المرجع السابق، ص183.

([4]) المرجع السابق، ص10

لمفهوم القيمة بالعلاقة المتبادلة بين قطع الشطرنج، " فقوانين اللعبة تقول أن كل تغيير في عنصر معين يؤدي إلى تغيير في النظام ككل".[1]

لقد تبنّت اللسانيات البنيوية فيما بعد مفهوم القيمة السوسيري، حيث أن ما وجد من فكرة أو مادة صوتية في الدليل هو أقل قيمة بالمقارنة مع ما يحيط به من دلائل أخرى، وأكد مفهوم القيمة حضوره ــ كما يؤكد "أنور المرتــجي"ــ في مجالات بعيدة عن اللسانيات، كما هو الشأن عند "ليفي شتراوس" في دراسته لنظام القرابة.

وانطلاقا من مفهوم القيمة عند "دي سوسير" انتقل إلى فكرة أساسية أخرى من أفكاره، كانت لها إسهاماتها في تشكيل علم السيميولوجيا، وهي العلامة اللغوية، فاللغة لدى "دي سوسير" عبارة عن "مستودع من العلامات والعلامة وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معين، وتضم جانبين أساسيين هما الدال والمدلول".[2] والشكل الآتي يبين العلامة ودورها في العملية التواصلية من منظور "دي سوسير":

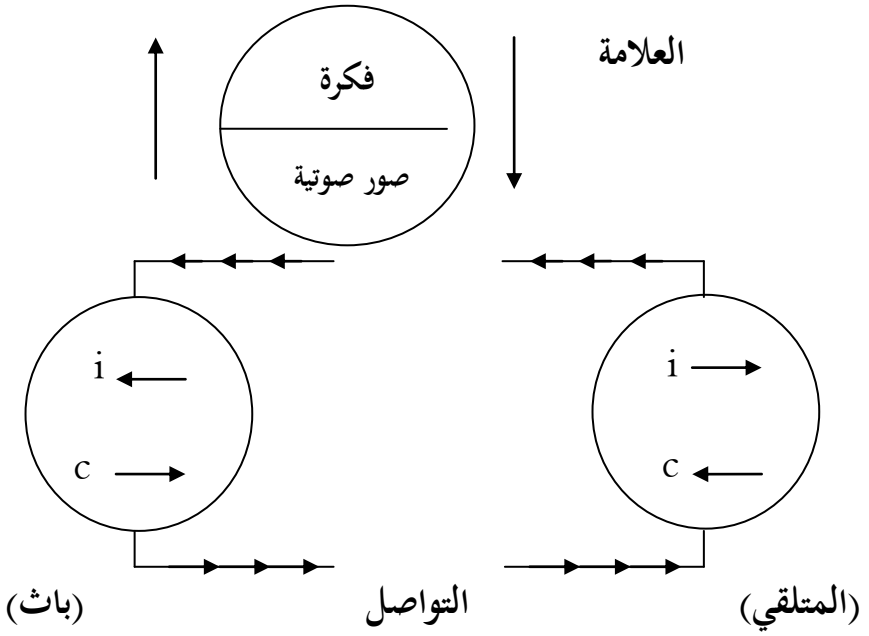

i= فكرة c= صورة صوتية

([1]) أنور المرتجي،سيميائيات النص الأدبي،ص10.

([2]) ينظر المرجع نفسه،ص10

إنّ "دي سوسير" يرى التّواصل ضربا من الحدث الاجتماعي الملاحظ في فعل الكلام، كما تقوم نظريته نتيجة لذلك على وجود شخصين اثنين على الأقل (باث ومتلقي)، والفكرة هنا "المدلول" أمّا الصورة الصوتية فهي "الدال" وكان هذا المفهوم وكان هذا المفهوم أساسا قامت عليه البنية الألسنية.

كما ينبغي الإشارة أنّ "دي سوسير" وفي مرحلة أولى من أبحاثه أثناء حديثه عن الدليل اللساني، قال بأنه يجمع بين متصور ذهني وصورة أكوستيكية، وفي مرحلة ثانية تخلى عن هذين المصطلحين اللذين لهما صدى نفسي كبير، وفضل الاحتفاظ بكلمة "دليل" للدلالة على المجموع واستبدل المتصور الذهني بالمدلول والصورة الأكوستيكية بالدال.[1]

وقد تبنّى جميع اللسانيين والسيميولوجيين الذين جاءوا بعد "دي سوسير" مفهومه للدليل، وأصبح ذا قيمة علمية كبيرة _كما تؤكد "دليلة مرسلي" وإن كان هناك من أدخل عليه تعديلا مثل "بارث" و "لاكان"، اللذين أخذا برفض فكرة وجود ارتباط ثابت بين الدال والمدلول، وقدموا حجتهم على ذلك بكون "الإشارات تعوم سابحة لتغري المدلولات إليها لتنبثق معها، وتصبح جميعا دوالا أخرى ثانوية متضاعفة لتجلب إليها مدلولات مركبة،[2]وقد انطلق هذا التعديل من مفهوم "دي سوسير" الذي ركز على نظرة أراد من خلالها أن يجعل أبحاثه ذات علمية وموضوعية أكثر، ليقول أصحاب هذا التعديل أنه من الصعب جدا إيجاد علمية بهذه الدرجة في الأبحاث اللغوية والأدبية، كما أن العلاقة الجامعة بين الدال والمدلول عند "دي سوسير" علاقة اصطلاحية عرفية، يقول في هذا الشأن وبعبارة واضحة صريحة " إنّ الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي، أو بعبارة أخرى، وبما أننا نعني بكلمة "دليل" المجموع الناتج عن الجمع بين الدال والمدلول يمكننا أن نقول بصورة أبسط: إنّ الدليل اللغوي اعتباطي"[2].وقد قدّم "دي سوسير" أمثلة كثيرة توضح هذا الرأي كاختلاف اللغات،

([1]) دليلة مرسلي، مفاهيم أولية عن السيميولوجيا، مدخل إلى السيميولوجيا(نص-صورة) ص12-13

([2]) فرديناند دي سوسير،محاضرات في الفلسفة العامة،ص 112.

حيث نجد المدلول الواحد يعبر عنه بدوال عديدة في لغات متميزة. فالاعتباطية السوسيرية إنّما هي قائمة على العلاقة بين الدال والمدلول، وهذا ما يعاب في هذه الفكرة، فهذا "إميل بنفينيست" يوافق على نظرية طبيعة العلامة اللغوية بأكملها، لكنه يريد أن يقوي من عنصرها بشأن مسألة يعتقد أنّ "دي سوسير" خانته الصلابة والتماسك في معالجتها، وهي أن الاعتباط يقع بين العلامة (دالا ومدلولا)، والشيء الذي تعنيه وليس بين الدال والمدلول".[1]

ولكن مهما قيل عن مفهوم الإعتباطية عند "دي سوسير"، وما نتج عنه من انطلاق قيد الإشارة، فإنّه يقوم كأخطر ما قدمته السيميولوجيا، حيث يتأسس عنه مبدأ القراءة السيميولوجية للنص التي تقوم على إطلاق الإشارات كدوال حرة، لا تقيدها حدود المعاني المعجمية، ويصير للنص فاعلية قرائية إبداعية، تعتمد على الطاقة التخييلية للإشارة في بواعثها مع بواعث ذهن المتلقي، ويصير القارئ هو صانع النص.[2]

توجد كذلك أفكار كثيرة جدا جاء بها "دي سوسير" في دراساته اللغوية، وتبنتها الدراسات السيميولوجية فيما بعد خاصة مبدأ الثنائيات الذي قام عليه الدرس اللغوي الحديث، ونقلته كل المدارس النقدية الحداثية.

ولعلّ أهم ما يميز المشروع السيميولوجي عند "دي سوسير" هو تأكيده على البعد الاجتماعي للدليل، والذي كان صريحا وجليا في تأكيده على أن الدلائل تعبر عن أفكار، وكذلك ما يمكن ملاحظته على أفكاره السميولوجية تأكيده على قضية القصدية، وإرادة التواصل، حيث ركز عليهما في معالجته لمسألة الدليل أما البعد النفسي الذي كان حاضرا في تعريفه للدليل، فقد طبع أعماله كلها، وجعل "مونان" يعتبره رجلا يمثل عصره، ولا ننسى قضية النظام التي جعلها محور أبحاثه اللغوية، فهي أهم ميزة على الإطلاق ميزت مشروعه السيميائي والتي تبنّاها كل من جاؤوا بعده.

([1]) عصام خلف كامل، الإتجاه السيميولوجي ونقد الشعر،ص39.

([2]) عبد الله إبراهيم وآخرون، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة(النبوية–السيميائية–التفكيك) ص78.

في الأخير، يمكن القول أنّ مشروع "دي سوسير" السيميولوجي إنـّما هو مستمد من دراساته اللغوية، التي كانت الأساس في بلورة أغلب المفاهيم السيميولوجية وحتى التفكيكية وغيرها من المدارس الحداثية الأخرى، فاللسانيات هي المنطق الوحيد لهذه المدارس التي رأت في النتائج التي توصلت إليها ألسنية "دي سوسير" الأمل الذي لا بد من الوصول إليه.